نشأة حركة الشروح وتطورها في الشعر العربي
(شرح المرزوقي لحماسة أبي تمام أنموذجاً)

أ/ تركي طارق

جامعة سيدي بلعباس(الجزائر)

الملخص باللغة الإنجليزية:

The Arabs in pre-Islamic era but in need of explaining poetry and illustrated them; because the poet Ibn environment, live in their time, and engaged with them in language, culture, and society, if the photo has not eased their Bedouin poet them concerns his hair and his purposes, and meanings, and not hide them something of its expressions and the navel, it is pronounced in nature and reflect the reality, if the when some poets utter stranger or mstghalk meaning the hearer or receiver-mostly-scurry to the poet himself, to explain to him the meaning of this term or Those words.

نص المقال:

كان العرب في العصر الجاهلي غير محتاجين إلى من يُفسر الشعر ويُبينه لهم؛ لأنَّ الشاعر ابن بيئتهم، يعيش في زمنهم، ويشترك معهم في اللغة، والثقافة، والمجتمع، فإذا صور الشاعر واقعهم البدوي لم تخف عليهم بواعث شعره، وأغراضه، ومعانيه، ولم يخف عليهم شيء من تعبيراته وألفاظه، فهو ينطق بسليقة ويُعبر عن الواقع المشترك، وإذا ما طرأ عند بعض الشعراء لفظ غريب أو معنى مستغلق فإنَّ السامع أو المتلقي – في الغالب – يهرع إلى الشاعر نفسه، ليُبين له المقصود من ذلك اللفظ أو تلك العبارة كالذي حدث مع عبيدة حين كان يصحب الأعشى ميمون بن قيس ويروي شعره وحين يستغلق عليه (أي على عبيدة) بعض ألفاظ الشاعر (الأعشى) يسأله عنها، روى أنّه سأله مرة: ماذا أردت بقولك: "سَلَبتها جِرْيَالَهَا" في:

ومُدامَةٍ مما تُعتَّق بَابِلٌ كَدَمِ الذَّبِيحِ سَلَبتها جِرْيَالَهَا

فقال له: «شربتها حمراء وبُلتها بيضاء»[1] جريالها: صبغ أحمر

وأيضاً جدة العجاج لما سألت امرأ القيس عن معنى استغلق عليها في قوله: «كَرَّكِ لأَمَيْنِ على نَابِلٍ» من بيته:

نَطْعَنُهُم سُلْكى وَمَخْلُوجَةً كَرَّكِ لأُمَيْنِ على نَابِلِ

فأجَابها: «مررت بنابل وصاحبه يُناوله الريش لؤاماً وظهارًا، فما رأيت أسرع منه ولا أحسن فشبهت به»[2].

هكذا كانت البداية الأولى في شرح الشعر، عبارة عن تفسير لفظة مفردة، أو توضيح اسم علم، أو تحديد مكان، أو بيان خبر يقوله الراوي في أثناء روايته للشعر، على أنَّه جزء الرواية غير مقصود لذاته، واستمرت حركة الشروح تسير في هذا المسلك طوال **القرن الأول** الهجري.

أما في القرن الثاني فقد أخذت حركة الشروح تخطو إلى الأمام بفضل المحاولات الاجتهادية التي ظهرت على أيدي بعض العلماء المختصين في جمع الشعر وتدوينه، ويتصدر هؤلاء العلماء الرواة: أبو عمرو بن العلاء (ت154ه) الذي عنى بجمع أشعار العرب مع بعض الإيضاح والتفسير.

وعلى نهجه سار المفضل الضَبِي (ت168ه) وأبو الخطاب الأخفش (ت177ه) وخلف الأحمر (ت180ه) ويونس بن حبيب (ت182ه)، وغيرهم[3]، حيث توسعوا في تفسيراتهم بذكر معنى البيت أحياناً،أو ذكر بعض اللمحات التفسيرية التي تتصل بمقصد الشاعر أو مناسبة الشعر أو الأخبار التاريخية، كما نجد في شروحهم – أحيانا– بعض الإشارات النقدية المتعلقة بمعاني الشعر أو سيرة الشاعر.

ومن النماذج التي تدل على جهودهم في عملية شرح الشعر، ما قاله أبو عمرو ابن العلاء حين سأله أبو عبيدة عن معنى قول الحارث بن حِلزة:

إنَّ إخوانِنَا الأَراقِمَ يَغْلُو نَ عَلَينا وفي قولِهم إحْفَاءُ

زَعَمُوا أنَّ كُلَّ مَنْ ضِرَبَ العَيْ رَ مَوَالٍ لَنَا وأنَّا الوَلاَءُ

قال: ذهب والله الذين كانوا يحسنونه، ولكنا نرى معناه: إنَّ إخواننا يضيفون إلينا ذنب كل من أذنب إليهم ممن نزل الصحراء، وضرب عيرًا، ويجعلونهم مَوالي لنا"، والموالي: الأولياء وبنو العم، و العير كليب وائل سماه عيرًا لأنه كان سيدًا والعير سيد القوم، فقال كل من قتل كُليبًا أو أعان على قتله عَدوه من أبناء عمومتنا أو واحدًا منا[4].

كما حاول بعض هؤلاء العلماء إصلاح ما قد يقع في بعض الشعر المروي من خطأ في المعنى أو في الصياغة، مثل قول الأصمعي: "قرأت على خلف شعر جرير فلما بلغت قوله":

فَيَالَكَ يَوْمًا خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّه تَغيَّبَ وَاشِيْه وأَقْصَرَ عَاذِلُه

فقال (خلف): ويله! وما ينفعه خير يؤول إلى شر؟ قلت له: هكذا قرأته على أبي عمرو، فقال: صدقت[5]، وكذا قاله جرير، وكان قليل التنقيح مشرد الألفاظ، وما كان أبو عمرو ليقرئك إلا كما

سمعن فقلت: فكيف كان يجب أن يقول؟ قال: الأجود له لو قال:" فَيَالَكَ يَوْمًا خَيْرُهُ دُون شَرِّه". فَارْوِه هكذا؛ فقد كانت الرواة قديمًا تصلح من أشعار القدماء، فقلت: ولله لا أرويه بعد هذا إلا هكذا[6].

ومصادر الأدب واللغة مليئة بالشواهد والأمثلة التي توضح حقيقة ما قدموه من جهود في مجال شرح النص الشعري القديم، وما عرضوا له من عناصر كالرواية، واللغة، والمعنى، والمناسبات والأحداث التاريخية المتعلقة به.

ومما هو جدير بالذكر أنَّ في عصر هؤلاء العلماء برزت ظاهرة جديدة تمثل منعطفًا مهمًا في تأريخ حركة الشروح وتطور مناهجها، وهي تلك الطريقة التي سنها أبو الخطاب الأخفش في شرح الشعر، حيث جعل شرح كل بيت تحته مباشرةً، بينما كان المألوف عند النَّاس هو الإتيان بالقصيدة كلها، أو مجموعة من الأبيات ثم شرحها والتعليق عليها[7].

ولابُد من القول أنَّ شروح وتفسيرات علماء هذا الجيل لم تصل إلينا إلا بفضل جهود تلاميذهم الذين ساروا على نهجهم في تفسير الشعر، فجمعوا ما دونوه وسجلوا ما سمعوه منهم، فمن هؤلاء نجد: أبا عبيدة معمر بن المثنى (210هـ)، وأبا زيد الأنصاري (215هـ)، وعبد المالك بن قريب الأصمعي (216هـ)، وابن الأعرابي (231هـ)، وأبا عمرو الشيباني (231هـ)، وغيرهم[8].

ولأنَّهم مع شدة اعتدادهم بشيوخهم واعتمادهم على أقوالهم لم يقفوا عند حد النقل عنهم، بل أضفوا إلى أقوالهم بعض التوضيحات والشروح الخاصة. وقد يُخالفونهم –أحيانًا– في بعض التفسيرات والروايات، فالأصمعي – مثلاً– خالف أستاذه أبا عمرو بن العلاء في بيت ابن المقبل:

مَنَحْت نَصَارَى تَغْلبِ إذ مَنحتها على نَأيها جَدَّاء مَانِعة الغُبْر

قال أبو عمرو: "جَدَّاء" لا لبن بها، فقال الأصمعي: "هذا خطأ، لأنَّ الغُبْر: بقية اللبن، وهي جَدَّاء، فكيف تمنع بقية لبنها؟، وإنَّما يجب أن تكون حَذَّاء، وهي خفيفة تسرع فيهم"[9].

وأبو زيد الأنصاري يرى أنَّ رواية أبي عمرو لبيت امرئ القيس:

تَأَوَّبَنِي دَائِي القَدِيمُ فَغَلَّسَا أُحَاذِرُ أَنْ يَرْتَدَّ دَائِي فَأُنْكسَا

فيه تصحيف[10]، وصحيح عنده " فَعَلَسَا " أي اشتد وبرح؛ لأنَّ المتأوب لا يكون مغَلِّسًا في حال واحدة؛ لأنَّ غلّسَ تعني أتى في آخر الليل، وتَأوب جاء في آخر النهار[11].

أما في **أواخر القرن الثالث** فإننا نلاحظ إسهامات علماء هذا القرن في حركة شروح الشعر تتمثل في جمع جهود السابقين وتنسيقها وتحليل بعض ما جاء فيها من أقوال وآراء، فظهرت بعض

الدواوين والمختارات الشعرية التي تحمل في طياتها عددًا من الشروح والروايات المختلفة المتميزة بإسناد الأقوال إلى ذويها من العلماء بكل أمانة ونزاهة.

ويعد أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري (275هـ)، وأبو العباس ثعلب (291هـ)، وابن قتيبة (276هـ) والمبرد (285هـ) من أبرز العلماء الذين جمعوا بين رواية الشعر وشرحه على طريقة الأخفش، وما يُمكن ملاحظته هو أنَّ الاتجاه اللغوي هو السمة الظاهرة في أغلب شروحهم، فأبو العباس ثعلب –على سبيل المثال– جمع وشرح ديوان الأعشى والنابغة الذبياني، والنابغة الجعدي، وزهير بن أبي سلمى، وغيرها من الأشعار، كما اعتمد على أقوال النحاة واللغويين، وحرص على إيضاح المشكل وتعليله وتفسير الغامض مع شيء من حسن العرض والتأليف[13]، وهذا المثال من شرحه لديوان زهير بن أبي سلمى الذي يقول في مطلع القصيدة هجا بها بني عُلَيم:

عَفَا مِنْ آل فَاطِمَةَ الجِوَاءُ فَيُمنٌ فَالقَوَادِمُ فَالحِسَاءُ

قال ثعلب: «الجِواءُ: أرضٌ، وقال الأصمعي: الجِواء من أراد به جمعًا فهو جمع جَوٍّ، وقد يكون الجواء للواحد وللجميع، والجِواءُ: ما انهبط، وقال أبو عبيدة: كلما خرجت من مضيق إلى متَّسعٍ فهو جِوَاءٌ، ويُمنٌ والقَوَادِم: في بلاد غطفان، والجِواء أيضًا: أن ينخرم حياء الناقة فيُخاط فتلك الخياطة جِواء، والجِيَاوَة غلاف البُرْمَة»[14].

كما نجد السُكري –أيضا– في شرحه لقول جِرَان العَوْدِ النُميري[15]:

حَمَلنَ جِرانَ العَوْدِ حتى وَضَعْنَه بِعَلياء في أرجائِها الجِنُّ تَعزِفُ

قال(السكري): «علياء مكان مرتفع من الأرض، وإنّمَا قال علياء لأنَّه بناها من عليْت، وقال ابن الأعرابي العزف والعزيف صوت الجن. وقال الأصمعي إنَّما هو الريح على الرمل فتسمع له صوتا، والجن لا تعزف ولكن الأعراب قالوه بجهلهم»[16].

ويتضح من هذين المثالين أن ثعلب وسكري –في الغالب– كانا يجمعان أقوال العلماء ويضعانها جنباً إلى جنب مع بعض الاجتهادات الخاصة في تفسير الغريب وذكر المناسبات التاريخية المتعلقة بالشعر. كما أنَّ شروح أقرانهما لا تختلف من حيث طريقة الشرح، وطريقة الالتزام بأقوال وآراء السالفين من العلماء.

ومن حيث الاهتمام بنواحي اللغوية والنحوية، وقلة العناية بالمعنى العام للبيت المشروح، والحرص الشديد على توثيق النقول، وهذا هو الطابع السائد على شروح الشعر حتى نهاية القرن الثالث هجري وبداية القرن الرابع.

وفي القرن الرابع شهدت حركة شروح الشعر نشاطاً واسعًا، اشترك في تكوينها ألوان الثقافات المختلفة، لأنَّ شروح الشعر في هذه الفترة لم تقف عند التفسير اللغوي والإعراب النحوي فحسب، بل تجاوزته إلى عرض الروايات المختلفة، وشرح المعنى بصور متعددة، وعناية الشراح بالنواحي الأدبية والنقدية والبلاغية في أثناء تحليلاتهم لمحتوى النص الشعري، والموازنات والمقارنات، مع بعض الإشارات النقدية، هذا بالإضافة إلى الطريقة المنهجية التي سلكها بعض الشراح في ترتيب القصائد المشروحة على حروف المعجم، كما فعل أبو بكر الصولي (335هـ) فيما جمع من دواوين الشعراء، ومن أبرز رواة هذا العصر نذكر: أبو محمد الأنباري (304هـ)، وابنه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (328هـ)، ولآمدي (370هـ)، والمرزباني (384هـ)، وأبو عبد الله النمري (385هـ)، وابن الجني(392هـ) [17].

وهناك ظاهرة بارزة أسهمت بكثرة في تطور حركة الشروح في هذا القرن فقد دفعت إليها الخصومة النقدية حول الشعر الجديد، حيث اهتم بعض الشراح بشعر المحدث الجديد، بأن جمعوا دواوينهم وتناولوها بالدرس والتحليل، وحاولوا توضيحها للناس بشرح غامضها وفك بعض رموزها المستغلقة، ثم مقارنتها بما عند الشعراء القدماء؛ لاكتشاف مواطن التجديد والتقليد[18]. وإذا كان كثير من دواوين الشعراء المحدثين قد نال عناية الشراح، فإنَّ (ديوان أبي تمام)، و(ديوان أبي الطيب المتنبي) كانا أبرز الدواوين الشعرية حظوة، وأكثرها عناية من قبل القدماء.

وما نكاد نصل على القرن الخامس إلا وجدنا خلاله وثبات واسعة المدى لشراح الشعر، إذ أخذوا في استكمال ما قصر سابقوهم في شرحه أو تركوه بدون شرح، ولمع عنصر الاهتمام بالمعاني والتفنن في تقليبها على أكثر من وجه مع النقد والتحليل والإبداع حتى طغى ذالك على شروح بعضهم كالمرزوقي (421هـ)، والمعري (499هـ). ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أنَّ القرن الخامس كان أزهى العصور لشرح الشعر، وأقربها إلى المنهجية والفنية.

وفي نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس أخذت الشروح تميل في الغالب إلى الاتساع والشمول بتجميع مادة الشرح من شروح السابقين بعد تهذيبها واختيار ما هو مناسب منها، كما أنَّ الشارح في هذه الفترة لم تكن تَفوته العناية بالأسرار اللغوية والنحوية والأخبار التاريخية والتعريف بالشعراء وأنسابهم، ولعل الخطيب التبريزي (503هـ)[19] أبرز من يمثل هذا الاتجاه في شروحه للشعر كشرحه للمفضليات ولحماسة أبي تمام وغيرها.

وتكاد تكون هذه الصبغة هي السائدة على جل الشروح خلال العصور المتعاقبة بعد القرن السادس، على أننا نجد بعض الشروح التي برزت في القرن الثامن كشرح عبيد الله بن عبد الكافي

لمختارات عز الدين عبد الوهاب الزنجاني التي سماها (المضْنُون بِه عَلَى غَير أَهْلِه) [20]، وفي العصر الحديث لا يبعد منحى علي المرصفي في شرحه للشعر على منحى السابقين.

هذه نظرة موجزة عن حركة تطور شروح الشعر في التراث العربي من بداية القرن الأول حتى العصر الحديث، حاولت أن أعرض فيها أهم المنعطفات والتغيرات التاريخية في مسيرة شرح الشعر وتفسيره، ولا ريب أنَّ حركة شرح الشعر لم تتوقف عند مرحلة محددة، بل نراها تتقدم مع تطور الزمان وازدهار الثقافة حتى اكتملت فيها صورة الشرح الأدبي، الذي كان لشراح أبي تمام إسهام كبير فيه.

شرح المرزوقي: يعد شرح المرزوقي أوفى الشروح الأدبية وأكملها، لكونه اشتمل على تحليل أبيات الحماسة من عدة جوانب بلاغية ونحوية وصرفية وغيرها. فضلا عن المقدمة النقدية التي صدر بها كتابه؛ إذ أنها تدل على تفتحِة ووعية الشامل، فبمقدمته النقدية، وتحليله الدقيق أصبح لشرحه شهرة واسعة، لم ينلها أي شرح آخر لديوان الحماسة، ولما لهذا الشرح من هذه الشهرة، وتلك القيمة الأدبية كان أولى بي أن أقدمه في الدراسة على غيره من الشروح. محاولاً بذلك إبراز أهم السمات والظواهر التي تميز بها المرزوقي في شرحه للحماسة.

وبعد هذه المقدمة شرح الباب الأول(باب الحماسة) لغويا[35]، ويليه تسعة أبواب وهي: باب المرَاثِي، ثم باب الأدب، فباب النسيب، فباب الهجاء، فباب الأضْيَاف، فباب الصفات، فباب السَّير والنُعَاس، فباب الملَح، ثم آخر باب وهو باب مذمة النساء. وقد عمد المرزوقي إلى شرح أبيات الحماسة بيتًا بيتًا، كل بيت على حدة، وفي بعض الأحيان يشرح معنى بيتين أو ثلاثة متتالين، ويكون شرحه شرحًا مفصل.

فكان أول ما بدأ به شرحه مقطوعة لبعض شعراء بلعنبر، وفي بعض الأحيان يوضح بمقدمة لبعض الشعراء، ويذكر الأصل اللغوي لألقابهم وأسمائهم، وفي نهاية كل باب يذكر خاتمة موجزة بقوله: «تم باب الحماسة بحمد الله الذي هو ولي الحمد»[36]، وهكذا سائر الأبواب حتى ينتهي إلى باب(مذمة النساء). وهذا المنهج في الشرح سلكه المرزوقي في شرحه حتى نهاية شرح كل أبيات الحماسة.

3/– أهم الجوانب التي اهتم بها المرزوقي في شرحه:

1/– جانب الرواية: يعد جانب الرواية من أهم جوانب شروح الشعر وأخطرها إذ كثيرا ما يتوقف على الرواية توجيه المعنى وتحديده، وقد عنى المرزوقي بهذا الجانب عناية كبيرة، وتعرض له

في صور متعددة، ومنهجه في ذلك هو أن يجعل رواية أصل الحماسة ويعتمدها في الشرح غالبا، وإلى جانبها يذكر الروايات الأخرى إن كانت هناك روايات، مفاضلا في ذلك بينها أيهما أقرب للأصل والصواب أو مقحمة عليها؟ ومجال الرواية عنده جاء على جوانب متعددة، يمكن أن تنقسم إلى: (رواية صحة البيت- رواية شطر- رواية لفظة مفردة- رواية حركة)

2/-الجانب اللغوي والنحوي: عُني المرزوقي في شرحه بهذا الجانب عناية واضحة دقيقة، فمن خلال شرحه يتضح أنه نحوي أدبي متذوق، له قدم راسخة وثقافة واسعة في اللغة، والنحو، وصنف في هذا المجال عدة كتب مثل : (شرح الفصيح)،(شرح الموجز في النحو)، و(ألفاظ العموم والشمول) وغيرها، وانعكس أثر ذلك على شروحه للشعر. ففي شرحه لأبيات الحماسة نجده كثيرا ما يذكر الوجوه النحوية، والصرفية، واللغوية الجائزة في مفردة بعينها:

أ- إما أن يذكر الوجوه، ويرجح الأحسن عنده كما في بيت الأول من قول يزيد بن قُنافة[48]:

لَعَمْري وَمَا عَمْري عَلَيَّ بِهَيّن لَبِئس الفَتَى المِدعُوُّ باللَيْلِ حَاتِمُ

يقول: وقوله: (المدعو بالليل) كثير من النحويين يذهبون في مثله إلى أنَّه بدل لا صفة، لأنَّ نعم وبئس يرفعان من المعارف ما فيه الألف واللام ودل على جنس، و ما يدل على الجنس لا يتأتى فيه الوصفية، والصواب عندي تجويز كونه وصفا بدلالة أنَّه يثنى ويجمع، فيقال: نِعم الرجلان الزيدان، ونِعم الرجال الزيدُون[49].

ب- إما أن يذكر الوجوه من غير أن يرجح أحدها : ويتضح ذلك في قوله: في بيت جعفر بن علبة الحارثي الذي يقول فيه:

أَلهَفي بقُرَّى سَحْبَلٍ حِينَ أَحْلَبَت عَلَيْنَا الوَلاَيَا والعدُّو الَمباسِلُ

يجوز أن يكون منادى مفرد، ويجوز أن يكون مضافاً، فإذا جعلته مضافاً فإن أصله ألهفي، أو ألهف. فإذا كان ألهفي فكأنه فر من الكسرة، وبعدها ياء إلي الفتحة، فانقلبت ألفاً[50].

هذا من الجانب النحوي أما لو انتقلنا إلى **الجانب اللغوي**، فإنَّنا نلاحظ أنَّ المرزوقي يتعرض خلال شرحه لبعض القضايا اللغوية دون التوسع أو الإسهاب فمن ذلك نجد:

أ- الاشتقاق اللغوي: مثل كلمة (الزرفات) في قول أحد شعراء بَلْعَنْبَر:

قَومٌ إذَا الشَّر أَبْدَى نَاجِذَيه لهُم طَارُوا إليه زرافاتٍ ووَحَدانَا[51]

قال: والزرافات: الجماعات، واشتقاقه من الزَرف، وهو الزيادة على الشيء، ويقال: زرفت القوم قُدامى، أي قدمتهم فرقا. يقال جاء القوم بزرافَّتهم أي بِجماعتهم[52].

ب- الألفاظ المعرَّبة: ومن ذالك جاء في تفسيره - مثلًا- لكلمة (منْجَنيق) في قول الشاعر:

أو تأَمَلت رَأسَه قُلت هذا حَجَرٌ مِن حِجَارَةِ المِنجَنِيقِ

قال: «والمنجنيق معربة»[53]

ج- الأضداد اللغوية: مثل ما ذكره في شرح كلمة (المأتم) في قول نهار بن توسعة (شاعر أموي):

فالنَّاسُ مَأْتَمُهُم عَلَيْهِ وَاحِدٌ في كُلِ دَارٍ رَنَّةٍ وَزَفِيرُ

عَجَبًا لِأربعِ أَذرُعٍ فِي خَمسةٍ فِي جَوفِهَا جَبلٌ أَشمُّ كَبِيرُ

قال: أصل المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر، وجعله ههنا المصيبة نفسها...وقال (أربع أذرع)، لأنَّ الذِراع مؤنثة، وفي خمسة لأنَّه أراد الأشبار. والشِبْر مذَكر، ويُشبه هذا قوله:

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ الجُودَ والجُودُ مَيِّتٌ وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِقْتَ حَتى تَصَدَّعَا

والجَبلُ الأشَمُّ: الطويل الرأس، ويُقال عِزٌّ أَشمُّ، يُراد بِهِ الارتفاع[54].

د- الاستعمالات المجازية: يذكر المرزوقي بعض الاستعمالات المجازية لبعض الألفاظ من ذلك ما نجده في تفسير لكلمة (نستوقد) في قول بعض شعراء بني بَوْلَان من طَيِّء:

نَسْتَوقِدُ النَّبلَ بِالحَضيضِ وَنَصْ طَادُ نُفُوسًا بُنَتْ على الكَرَمِ

قال: الوَقد: توسعوا فيه حتى قيل: قلب وقاد، وقال الخليل: «كل ما تلألأ فقد وَقَد»[55]

3/- الجانب البلاغي: لهذا الجانب أثر واضح، وملموس عند المرزوقي يتجلى ذلك الأثر في الإشارات البلاغية التي أشار إليها في شرحه لبعض الأبيات:

أ- التشبيه: يقول الشاعر:

والحَرْبُ يَلحَقُ فيهَا الكَارِهُون كَمَا تَدْنُو الصِّحَاحُ إلى الجَرْبَى فَتُعْدِيهَا

يقول: «شر الحرب يُعْدِي إعداء الجرب .فترى الكاره لها يلتحق بها، وإن كان غير عازم لها . وتلقى البعيد منها يصطلي بحرها، وإن لم يُذكِها، ولم يُشيع موقدها. وفي هذا التشبيه خروج المشبه من الكمون إلى الظهور ومن الخفاء إلى البروز. حتى يتجلى لمتأمله والمفكِّر فيه على بعده في التصور تجلي القريب في العرف والاعتياد .وهذا هو غاية المراد من التشبيهات»[56]

إن المشبه الكامن الخفي، أي: الغير الواضح والغير الظاهر في هذا البيت، هم الناس الكارهون للحرب وشعورهم بكره الحرب كامن خفي في نفوسهم ولكنهم يسيرون للحرب مكرهين، اتباعا لجمهور الناس .والمشبه به الواضح المعروف بالرؤية والاعتياد في الواقع هو صحاح الإبل التي تدنو من الإبل الجربى فيصيبها الجرب بالعدوى.

ومثله – أيضاً – في بيت تأبط شراً

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ مَوْتاً كما أَطْ رَقَ أَفْعَى يَنْفِثُ السَّمَّ صِلُّ

يقول: «شّبه نفسه في إطراقه، وسكونه، منتظرا لفرصة ينتهزها في إدراك ثأره بالحية، وأنه في إمساكه يَرْشَحُ بالموت لعدوه، كما أن الحية إذا أطرق نفث بالسم، والرَّشَح كالْعَرَق، والنَّفْث كالقَذْف، و(الصِّلُّ) من صفة الأفعى ويوُصفُ به كل داهية، وكُل خبيث»[57]

ب– الاستعارة: وقال أيضًا تأبط شرًا:

تَضْحَكُ الضَّبْعُ لِقَتلَى هُذَيْلٍ وَتَرَى الذِئبَ لها يَسْتَهِلُ

يقول: «استعار الضحك للضبع، والاستهلال للذئب. وأصل التهلل والاستهلال في الفرح والصياح والمراد رغد العيش لهما»[58]

ومراد الشاعر أنهم قد أوقعوا في قبيلة هذيل وقعة عظيمة، حتى كثرت فيهم القتلى، فعبر عن هذا المعنى المراد بفرح الضبع والذئب بجثث القتلى، فاستعار للضبع الضحك، وللذئب الاستهلال وهو الصياح عند الفرح بأكل هذه الجثث.

ج– الكناية: مثل قوله في شرح بيت أبي النَشْنَاش (من لصوص بني تميم):

فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِلفَتَى من قُعُودِهِ عَدِيمًا ومِنْ مَوْلىً تَدِبُّ عَقَارِبُه

يقول في معنى البيت: إذا الرجُلُ لم يَكُن على ما وَصفت فَوُرودُ الموت عليه خيرٌ لَهُ من قُعُودِه رَاضِيًا بِفَقْرِه،...فدبيب العقارب كناية عن فعِلِ الأذَى، والتحَّمُّدِ بالكلمات المكُدِّرة[59]. و(الدبيب) هو المشي الرُويد الخفي.

ونرى البديع يتجلى في شرحه أيضًا فقد تعرض لبعض ألوانه مفصحا عما تحمله من جمال لفظي وتعبيري.

د– الطباق: فمن ذلك شرحه لبيت بشامة النهشليُّ:

إنّا لَنُرَخِصُ يَومَ الرَوْعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا في الأمْنِ أُغْلِينَا

فيقول: نبتذل أنفسنا في الحروب ولا نصونها، ولو عرض علينا إذالتها في غيرها لامتنعنا. وفي البيت طباق بذكر(الإرخاص والإغلاء)، و(الروع والأمن) في موضعين .وهو حسن جيد.

أشار المرزوقي هنا إلى الطباق إشارة خاطفة وجيزة بعد شرح معنى البيت، مدليًا برأيه النقدي في استحسانه لهذا الطباق بقوله: «وهو حسن جيد»[60].

وأيضًا فيما تقدم معنا من البيت في قول أحد شعراء بلعنبر:

إذَا لَقَامَ بِنَصْرِي مَعْشَرٌ خُشُنٌ عِندَ الحَفِيظَةِ إن ذو لَوثَةٍ لَانَا

يقول: «وقد طابق الخشونة باللين فظهرت الصنعة به، وجاد البيت له، كأنه قال معشر خَشِنُون عند الحفيظة إن كان ذو اللوثة لِينين عندها»[61]

لقد شرح المرزوقي الطباق ونبه فيه القارئ المتلقي إلى الجمال الفني الذي وفره هذا الطباق في البيت، وصنيعه هذا يعين على فهم معنى الصورة الشعرية فيه فهما أوسع وأعمق .وقد زاد على الشرح فأدلى برأيه في موطن الحسن والجودة فيه.

هـ- الجناس: يُعد الجناس قليلاً مقارنةً بالأوجه البلاغية الأخرى منها:

قول الشاعر:

وأَتبع لَيلى حَيثُ صَارَت وَوَدَّعَت وَمَا النَاس إلا آلفٌ وَمُوَدِّعُ

والجناس في هذا البيت واقع بين قوله: (ودعت) وقوله: (مودع) وقد أشار المرزوقي إلى ذلك فقال: «ومثل وَدَعَت ومُوَدِع يسمى التجنيس الناقص» ولم يعرج على بيان جدوى هذا التجنيس البلاغي وأثره في توضيح معنى البيت أو تحسينه[62]. والحق أن الجناس مهاد إيقاعي صوتي منغوم، ينشأ من نغم تكرار الحروف. وهو بذلك يزين المعنى في السياق الشعري ويحسن وقعه في نفس المتلقي.

كما نجده يستحسن الجناس في قول عُبيد بن مارويَّة:

فَإِنِّي لذُو مِرَّةٍ مُرَّةٍ إذا رَكِبَت حَالَةٌ حَالَهَا

قال: «المِرَّة: القوة والقتل، استَمرت مَرِيرَتُه، واستمر عِذارُه في الإباءِ والتَمَنُّع، ولم يرض بأن جعل لنفسه مِرة حتى وصفها بأنها مرة، يعني في فم ذائقها، وعند تجربة مزاولها وهذا التجنيس حسن المورد»[63]

شرح المرزوقي الصورة الشعرية الواردة في هذا البيت، ونبه المتلقي إلى أن هناك جناسا حسنا وجميلا يجب الوقوف عنده لفهم معنى البيت فهما دقيقا وعميقا. وهذا ما قاله بعد شرح الصورة الشعرية.

إذن فالجانب البلاغي يأتي عند المرزوقي في شرحه لشعر على جانبين: إمّا بالعرض السريع؛ لأنَّ المعنى واضح، وإمّا بتوضيح المعنى من خلال بلاغة البيت، لإظهاره بصورة واضحة للقارئ.

4/- الجانب النقدي: لهذا الجانب حضور بارز في شرح المرزوقي ابتداء من مقدمته النقدية وما فيها من قضايا نقدية بارزة فلعل أبرزها قضية عمود الشعر الذي لم يسبق لناقد قبل المرزوقي أن حدد أبوابه في مثل هذا التحديد العددي المعياري، وانتهاء بالإشارات النقدية التي نجدها واضحة في شرحه سواءً كانت أحكام نقدية مفصلة أو أحكام نقدية مختصرة. فالمرزوقي يعبر عن موقفه ووجهة نظره في الروايات المختلفة والآراء اللغوية والنحوية إذ نجد كثيرا من الألفاظ النقدية منثورة

في شرحه كأن يقول: «أو لو قال كذا لكان أحسن» أو« والأجود عندي» أو يقول «هذا حسن عندي» وهذا يبدو واضحًا في شرحه، وذلك مثل قول سبرة بن عمرو الفقعسي:

ونِسوتكُم في الرَّوْعِ بادٍ وُجُوهَها يُخَلْنَ إماءً، والإماءُ حرائِرُ

قال المرزوقي: «والمراد: ونساؤكم تشبهن بالإماء، مخافة السباء». ثم تابع الكلام في النقد:«ولو قال:(يُخَلْن إماءً و هُن حَرائِر) لكان مأخذ الكلام أقرب. لكنه عدل إلى:(والإماء حرائر)، ليكون الذكر به أفخم، والاقتصاص أشنع وأعظم»[64].

لقد أتى في هذا المثال بكلام نقدي بَين فيه أن الشاعر قد عدل عن قرب مأخذ الكلام، أي الاستعمال المألوف في الكلام (وهُنَ حَرَائر) إلى تركيب آخر له (والإمَاء حَرَائر) وقد قصد الشاعر بهذا العدول إلى تقوية المعنى المقصود، لأن ذكر الإماء في هذا التركيب يزيد في شناعة المعنى وتفخيمه .وجدوى هذا النقد هو تنبيه المتلقي إلى هذا المغزى الدقيق الذي أراده الشاعر.

وقال جعفر بن عُلبْة الحارثي:

فقُلنا لهُمْ تِلكُمْ إذاً بعدَ كَرَّةٍ تُغادِرُ صَرْعَى نَوءُها مُتخَاذِلُ

قال في شرحه معنى البيت:بيننا قوم مصروعين يخذلهم النُهوض ولايُطيقون الحراك، وفي لفظة (نوءُها): «وقوله (نوءُها) الضمير يعود الى صرعى والجمع مآله على التأنيث، ولو قال (نوءهُم) لكان أحسن»[65].

وكان الشارح في بعض الأحيان يستحسن أقوال الشعراء من حيث الصورة الشعرية، وذالك يظهر في قول ابن زيابة التيمي:

نُبِّيتُ عَمْرًا غَارِزا رأسَهُ في سِنةٍ، يوعِد أخواله

قال المرزوقي: «وأراد بالسنة الغفلة. وهي ما يحدث من أوائل النوم في العين، ولم يستحكم بعد. وهذا من أحسن التشبيه، وأبلغ التعريض»[66].

وقال بعض شعراء بني فقعس:

فهلاَّ أَعَدُونِي لِمثلِي، تَفَاقَدوا إذْ الخَصْمُ أَبْزَى، مائِلُ الرأس أَنْكَبُ

قال المرزوقي: «وهذا تصوير لحال المقاتل إذا انتصب في وجه مقصوده. وهو أبلغ في الوصف من كل تشبيه...والمعنى لما أفاتوني أنفسهم، وهلا ادَّخروني ليوم الحاجة إذا كان الخصم هكذا،...وقال الأصمعي: البَزَى: تأخُر لعَجُز، والنَّكَب شبه المشي في المشي».[67]

نفهم من هذا الكلام أن المرزوقي معجب بالصورة الشعرية لدى الشاعر في تصويره لحال المقاتل: (إِذْ الخَصْمُ أَبْزَى، مائِلُ الرأس أَنْكَبُ) وقد أبدى إعجابه بقوله:«وهو أبلغ في الوصف من كل تشبيه»

وفي قول قيس بن الخَطِيم الأوسي:

إِذَا مَا شرِبْت أَرْبَعًا خطَّ مِئْزرِي وَأَتبَعْتُ دَلْوِي في السَّمَاحِ رِشَاءَها

قال المرزوقي في شرح معنى البيت: «إذا شربت أربع أكؤس، جررت مئزري، فأثر في الأرض خيلاء وكبرا .وتممت ما بقي علي من السماح في حال الصحو، كأن معظمه فعله صاحيا، والباقي منه تممه في حال السكر». وتابع كلامه في النقد: «وهذا أجود من قول عنترة العبسي، وإن كان مفضلا عند كثير من الناس على قول عمرو بن كلثوم.

وقول عنترة:

وإذا انْتَشَيْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ مَالِي، وَعِرضِي وَافِرٌ لَم يكْلمِ

وَإِذا صَحَوْتُ فَمَا أُقْصِّر عَن نَدًى وَكَمَا علِمتِ شمائِلِي وتكرمِي

وبيت عمرو:

مُشَعْشَعَةٌ كأنَّ الحُصَّ فِيها إِذَا مَا المِاءُ خَالَطَهَا سَخِينَا[68]

إن المرزوقي يوازن بين أقوال هؤلاء الشعراء الثلاثة في المعنى نفسه الذي طرقوه. ويفضل قول قيس بن الخطيم الأوسي .ويعلل هذا التفضيل بقوله عن بيت عمرو: «لأنَّ هذا قال :إنا نتسخى إذا شربنا الخمر ممزوجة»، وهذا يعني أنه يتسخى في حال خاصة معينة، وهي حال شرب الخمر ممزوجة. ومراد المرزوقي أن قول قيس بن الخَطِيم أعم وأشمل من قول عمرو بن كلثوم، ثم قال عن عنترة:«وما قاله عنترة في بيتين أشار إليه قيس في مصراع، ومراد المرزوقي أن قول قيس أفضل، لأنه أوجز إذ جاء بالمعنى في مصراع واحد، وهذا أوقع في النفس، لأن خير الكلام ما قل ودل، وهو ما أراده المرزوقي فيما نرى، أي فضيلة الإيجاز.

فهذه كانت بعض الاشارات النقدية المتفرقة في شرح المرزوقي سواءًا كان من حيث نقده، أو استحسانه وثناءه، أو موازنته ومفاضلته بين الشعراء، أوزيادته وتعليقاته، فكثيرًا ما لاحظنا مراعاته للألفاظ التي يستعملها الشاعر غالبا مرعاة دقيقة، وهذا يدل على حسه النقدي، وذوقه الأدبي الذي يتمتع به المرزوقي.

هوامش البحث:

(1) ابن قتيبة،(الشعر والشعراء)،تح: أحمد محمد شاكر، ط2،دار المعارف،كورنيش النيل(القاهرة-مصر)، 260/1.

(2) أبو القاسم حمزة البصري،(التنبيهات على أغاليط الرواة)،تح:عبدالعزيز الميمني،دار المعارف،1967م/1387ه، ص:89.

(3) عبد الله عبد الرحيم عسيْلان،(حماسة أبي تمام وشروحها)،دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي،2008(مصر)، ص: 56.

(4) ابن قتيبة،(كتاب المعاني الكبير)، تح: سالم الكرنكوي، دار النهضة الحديثة،1953م،(بيروت-لبنان)، 855/2.

(5) المرزباني، (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء)،تح:محمد حسين شمس الدين،دار الكتب العلمية،(بيروت-لبنان)، ص: 156-157.

(6) المرزباني، (الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء)،تح:محمد حسين شمس الدين،دار الكتب العلمية،(بيروت-لبنان)، ص: 156/157.

(7) ينظر: جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي،(بغية الوعاة في طبقات اللغوين والنحاة)، تح:محمد أبو الفضل ابراهيم،ط2،دار الفكر،1979م/1399ه،(بيروت-لبنان)، ص: 74.

(8) عبد الله عبد الرحيم عسيْلان، (حماسة أبي تمام وشروحها)، م.م.س، ص: 57.

(9) أبو أحمد الحسن بن عبد الله العسكري، (شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف)، تح:عبد العزيز أحمد، ط1، مكتبة البابي الحلبي وأولاده،1969م/1383ه،(مصر)، 78/1.

(10) التصحيف: هو كل تحريف ينشأ من تشابه صور الخط، أي هو تغير نقط حرف أو أكثر، وقد ألف بعض العلماء كتبا في هذا الموضوع، منها: «التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الاصفهاني» (ت360ه)، و«شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف» لعبد الله العسكري(ت382ه). ينظر: محمد التونجي،(المعجم المفصل في الأدب)، 254/1-255.

(11) ينظر: المرجع نفسه، ص:109-110.

(12) ابن رشيق القيرواني، (العمدة في صناعة الشعر ونقده)، ط1،مطبعة السعادة،1907م/1325ه (مصر)، 84/2.

(13) ينظر:عبد الله عبد الرحيم عسيْلان،(حماسة أبي تمام وشروحها)، ص: 59.

(14) أبو العباس ثعلب،(شرح شعر زهير بن أبي سلمى)، تح: فخر الدين قباوة، ط3، مكتبة هارون الرشيد، 2008م/1428ه، (دمشق-سوريا)، ص: 52-53.

(15) جِرَان العَوْدِ النُميري: هو عامر بن الحارث، ولُقب جِرانَ العَوْد لأنَّه كان قد اتخذ جلدًا من جِرَان (العُنُق) العَوْد (الجمل المسن) ليضرب به امرأتيه. ينظر: محمد التونجي،(المعجم المفصل في الأدب)، 313/1.

(6) أبو سعيد السُكري، (ديوان جران العود النميري)، ط1، دار الكتب المصرية، 1931م/1350ه (القاهرة-مصر)، ص:19.

(7) ينظر: عبد الله عبد الرحيم عسيْلان،(حماسة أبي تمام وشروحها)، ص:60.

(8)كوركيس وميخائيل عواد،(رائد الدراسة عن المتنبي)،دار الرشيد، (بغداد- العراق)،1979م،ص:81.

(9) ينظر:عبد الله عبد الرحيم عسيْلان،(حماسة أبي تمام وشروحها)، ص:61.

(20) ينظر المرجع نفسه، ص:62.

(2) ينظر: عبد الله عبد الرحيم عسيلان،(حماسة أبي تمام وشروحها)،م.م.س،ص:98.

(22) واسمه "قُرَيْط بن أُنَيْف" ذكره التبريزي في شرحه، 5/1.

(23) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)،تح:أحمد أمين–عبد السلام هارون،ط1،دار الجيل، 1991م/1411هـ (بيروت– لبنان)، 26/1.

(24) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)،تح:أحمد أمين–عبد السلام هارون، 35/1.

(25) ينظر: المرجع نفسه، 789/2.

(26) ينظر: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني،(مسند ابن ماجه)، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، (بيروت– لبنان)، رقم:4164 ، 1394/2. والحديث رواه عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:«لَوْ أَنَّكُم تَوَكَّلُون على الله حَقَ تَوَكُّلِه لَرَزَقَكُم كَما يرزُق الطير تغْدُو خِمَاصًا، وتَرُوحُ بِطَانًا».

(27) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 472/1- 473.

(28) ينظر: المرجع نفسه، 792/2.

(29) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 669/2. وينظر:أحمد محمد شاكر،عبد السلام محمد هارون،(شرح المفضليات)، م.م.س، المفضلية:63 لعُمَيْرة بن جُعلة،ص:258.

(30) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 496/2.

(31) القتال: لقب غلب عليه واسمه عبد الله بن المجيب بن المضرحى بن عامر بن كعب بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. وهوشاعر اسلامي. كما روى التبريزي في شرحه، 104/1.

(32) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 652/2–653.

(33) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)،ص:4/1.

(34) المرجع نفسه،ص:13/1.

(35) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 21/1

(36) المرجع نفسه، 780/2.

(37) هو عمر بن الحارث بن همام. أحد بنى تيم اللات بن ثعلبة، شاعر جاهلي، وزيابة أمه.ينظر:المرجع نفسه، 142/1.

(38) ينظر:المرجع نفسه، 145/1.

(39) ينظر: عبد الله عبد الرحيم عسيلان،(حماسة أبي تمام وشروحها)،م.م.س،ص:97.

(40) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 668/2.

(41) هو ثابت بن جابر بن سفيان. سميَ تأبط شرًا لأنه تأبط سيفًا وخرج، والتأبط: وضع الشيء تحت الابط، فقيل لأمه: أين هو؟ فقالت: تأبط شرًا وخرج، وهذا أشهر ما قيل في سبب تلقيبه. وهو أحد لصوص العرب المغرين الصعاليك، قرينًا الشنفرى. ينظر: أحمد شاكر وعبد السلام هارون (شرح المفضليات)،م.م.س.ص:27.

(42) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 97/1–98.

(43) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 44/1–45.

(44) ينظر: المرجع نفسه، 71/1.

(45) ينظر: المرجع نفسه، 67/1.

(46) ينظر: المرجع نفسه، 68/1.

(47) ينظر: المرجع نفسه، 496/2.

(48) هو يزيد بن قُنافة بن عبد شمس العدوى، من بنى عُدى بن أخزم، رهط حاتم بن عبد الله. قال ابن جني : «الأقنف: صغر الأذنين وغلظهما، وبه سُمي الرجل قُنافة». ينظر:(شرح التبريزي)، 19/4.

(49) ينظر: المرجع نفسه، 1464/3-1465.

(50) ينظر: المرجع نفسه، 44/1.

(51) ينظر: المرجع نفسه، 27/1.

(52) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 29/1.

(53) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 1878/2- 1879.

(54) ينظر: المرجع نفسه، 951/2-952.

(55) ينظر: المرجع نفسه، 165/1-166.

(56) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 408/1.

(57) ينظر: المرجع نفسه، 829/2.

(58) ينظر: المرجع نفسه، 837/2.

(59) ينظر: المرجع نفسه، 318/1.

(60) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 104/1- 105.

(61) ينظر: المرجع نفسه، 25/1- 26.

(62) ينظر: المرجع نفسه، 1338/3.

(63) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 605/2.

(64) ينظر: المرجع نفسه، 237/1- 238.

(65) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 46/1 -47.

(66) ينظر: المرجع نفسه،142/1.

(67) ينظر: المرجع نفسه،214/1.

(68) ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 187/1- 188.

(69)ينظر: عبد الله عبد الرحيم عسيلان،(حماسة أبي تمام وشروحها)،م.م.س، 127.

(70)ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 1825/4.

(71)صفية بنت عبد المطلب بن هاشم، عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووالدة الزبير بن العوام(رضى الله عنه).

(72)ينظر: أبوعلي المرزوقي،(شرح ديوان الحماسة)، 1788/4- 1789.